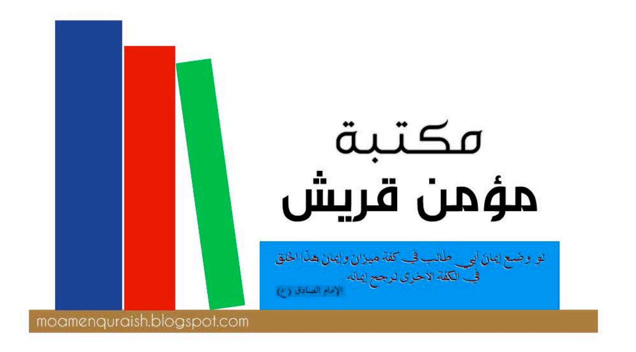
قاسم شُعيب

فتنة الحداثة

صورة الإسلام لدى الوضعيين العرب







الكتاب: **فتنة الحداثة**

تأليف: **قاسم شُعيب**

الطبعة الأولى، 2013

عدد الصفحات: 208

القياس: 14 × 21

ISBN: 978-9953-68-588-5

الناشر: **المركز الثقافي العربي**

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا) - 42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 303339 522 212+ - 307651 522 212+
فاكس: 305726 522 212+
Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 113/5158 - الحمراء - شارع جاندارك - بناية المقدسي
هاتف: 750507 1 961+ - 352826 1 961+
فاكس: 343701 1 961+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

منبر مؤمنون بلا حدود

مؤسسة دراسات وأبحاث

www.mominoun.com

الرباط المدينة - ص.ب: 10596 - المملكة المغربية
هاتف: 730450 537 212+ - فاكس: 730408 537 212+
Email: info@mominoun.com

دور أبي طالب

كان أبو طالب يؤدي دور الوسيط بين النبي وقريش، ولو أعلن إسلامه لما كان بإمكانه إن يؤدي هذا الدور. وإخفاء أبي طالب لإسلامه جعل فريقاً من المسلمين يتهمه بالكفر حتى آخر نفَس من حياته. إن جعيط لا يتناول هذه المسألة، غير أنه لابد لنا من من التأكيد أن حماية أبي طالب لم تكن فقط منطلقة من علاقة النسب، ثم كفالته للنبي بعد عبد المطلب، ولكنها كانت أيضاً منطلقة أيضاً من إيمان أبي طالب برسالة النبي، وهو الإيمان الذي حرص على إخفائه ليكتفي بالإشارة إليه من بعيد من خلال بعض الكلمات أو الأشعار التي كان يطلقها.

ويرفض جعيط وجود طلب من الملأ القرشي إلى أبي طالب لتسليم النبي (ص)، لأن ذلك بالنسبة إليه «لا معنى له في الأعراف القبلية، محمد محمي طبيعياً من القتل وحتى من الأذى البدني بقوانين الثأر التي تتقمصها كل عشيرة بني عبد مناف وليس فقط سلالة بني هاشم»[20]. ودور أبي طالب كان حماية النبي من الأذى النفسي وإعطائه الحرية التي يحتاجها في دعوته... فهو ينفي حتى مجرد النية أو التفكير في قتله. وهنا يتهم جعيط ابن إسحاق بالتشيع أو مداراة بني العباس، فهو بالنسبة إليه يريد أن يرفع من شأن حماية أبي طالب ومن وراءه بني هاشم[21].

لكن الحقيقة هي أن ابن إسحاق لا علاقة له بالتشيع. كما أن

(20) **تاريخية الدعوة المحمدية**، م.س، ص 221.

(21) م.ن، ص 221.

كتب التاريخ والسير الأخرى تثبت كلها حرص قريش على قتل النبي، وعندما فشلت بسبب رفض أبي طالب تسليمه، بالغت في إيذائه لتسلط عليه السفهاء والأطفال. . . فيما كان الملأ يطلقون كلماتهم الساخرة والمستهزئة، وهنا كان تدخل أبي طالب مرة أخرى أساسياً في الحد من ذلك والحؤول دون استفحاله.

لقد نجح أبو طالب في صد قريش وحماية النبي، ومن أجل ذلك استطاع الرسول أن يجد مساحة كافية من الحرية ليحرك دعوته. . . بل إن أبا طالب وبني هاشم عموماً ومعهم بني المطلب سيقاسمون الرسول (ص) الكثير من الأذى عندما سيخضعون جميعاً لحصار اقتصادي واجتماعي فرضته عليهم قريش ودام لسنتين أو أكثر.

لكن جعيط الذي يصر على سلب بني هاشم أي دور في حماية النبي، يرفض ما تورده المصادر عن الصحيفة والحصار، ويلجأ كالعادة إلى اتهام ابن إسحاق باختلاق الرواية. إنه يرفض الرواية بتفاصيلها؛ اللجوء إلى الشعب والمقاطعة الاقتصادية فلا بيع ولا شراء من بني هاشم، والمقاطعة الاجتماعية فلا تزويج لهم ولا زواج منهم.

وعندما يورد ابن إسحاق قصيدة منسوبة إلى أبي طالب يشكو فيها لامبالاة بني عبد مناف وأذى بعضهم للنبي، يعتبرها جعيط ملفقة ومنسوبة إلى أبي طالب دون حقيقة متابعاً في ذلك منتغمري وات[22].

ومهما يكن، فقد فشلت قريش في النيل من النبي بسبب حماية أبي طالب لتنتقل بعد ذلك إلى اضطهاد المؤمنين المستضعفين أو أولئك الذين ينتمون إلى عشائر أقل وجاهة وشرفاً. لكن من غير

---

(22) م. ن، ص 222.

الواضح إذا ما كانت الفتنة التي تعرض لها المستضعفون متزامنة مع الأذى الذي كان يتعرض له النبي أم أنها كانت متأخرة عن ذلك زمنياً. وفي كل الحالات لا أحد بإمكانه نفي هذه الفتنة لأن القرآن تحدث عن ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾[23]. ولم يجد جعيط طريقة للقول إن الفتنة متأخرة زمنياً سوى الزعم بأن هذه الآية منضافة، وأنها من الفترة المكية الثانية متابعاً في ذلك نولدكه وبلاشير.

ويرفض جعيط أن تكون هناك هجرتان إلى الحبشة ويعتبر أن الهجرة الثانية ليست إلا رجوع بعضهم إلى الحبشة، وهو في ذلك يوافق منتغمري وات لكنه يخالفه عندما يتحدث عن وجود مشاحنات بين أبي بكر وعثمان ابن جدعان لأن المصادر ليس فيها شيئاً من ذلك، ولأن أبا بكر لم يهاجر أصلاً إلى الحبشة تماماً مثل علي وحمزة وزيد والمفتونين الذين صمدوا في وجه قريش.

ورغم أنه يقر بوجود هجرة واحدة على الأقل إلى الحبشة، إلا أنه ينفي قصة سفارة عمرو بن العاص، ويقول إنها من صنع الخيال في محاولة للدفاع عن ابن العاص صاحب التاريخ المشين قبل الإسلام وبعده، ولكن من طرف خفي. لقد أوردت السير سفارة عمرو ابن العاص صحبة عمارة بن الوليد من أجل تحريض النجاشي ضد المسلمين المهاجرين، ولا يرفض هذه الرواية سوى البلاذري كما يعترف جعيط نفسه. ومن الناحية المنطقية، فإن سفارة عمرو بن العاص معقولة تماماً، فقد كان في تلك المرحلة ضمن الجبهة

(23) البروج: 10.

المضطهدة للمسلمين، وكانت له علاقات مع النجاشي تخوله القيام بمثل هذه السفارة.

وفاة أبي طالب

سيموت أبو طالب، وسيموت معه في أوقات متقاربة الجيل القديم من سادة قريش أمثال أبي أحيحة والوليد بن المغيرة والعاص بن الوائل والأسود بن المطلب. وسوف يأخذ مكانهم جيل جديد هو جيل النبي (ص) نفسه كما هي حالة أبي جهل وأبي لهب وأبي سفيان... وهؤلاء كانوا يرون النبي مزاحماً لهم في سلطتهم المعنوية خلافاً لآبائهم الذين كان همهم المحافظة على الآلهة والنظام الاجتماعي السائد.

لقد غيب الموت خصوم النبي من الطبقة الأولى من ذوي الأسنان، لكنه غيب أيضاً أبا طالب الذي كان الحامي للنبي. لكن جعيط يحاول دائماً التقليل من شأن أبي طالب وأهمية دوره مدعياً أن التشيع هو الذي بالغ في ذلك[24]. وهي حجة لا تستقيم لأن العكس هو الصحيح، فهذه المصادر دونت في العصر العباسي، وكانت متداولة شفاهياً في العصر الأموي، ومن المؤكد أن الكثير من المعطيات قد غيبت بسبب معاداة الأمويين والعباسيين معاً لبيت أبي طالب. وهذا يعني أن دور أبي طالب ربما كان أكبر مما تورده السير.

ويشير ابن سعد في طبقاته إلى أن أبا لهب أصبح بعد وفاة أبي

---

(24) تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، م.س، ص 285.

طالب سيد بني هاشم وكان يريد أن يؤدي دور أخيه في حماية النبي. يقبل جعيط ذلك ويعتبره ممكناً[25]. لكن هذا مستبعد في رأينا، لأن الدور الذي كان يؤديه أبو طالب كان منطلقاً من إيمانه برسالة محمد (ص)، ولم يكن مجرد عاطفة تجاه ابن أخيه. في حين كان أبو لهب عدواً مباشراً للنبي منذ البداية، وكان شديد الأذى له. والمنطقي هو أن يستغل غياب أبي طالب لتكثيف أذاه للنبي لا أن يحميه. وهذا ما حصل بالفعل في الحقيقة.

ثم يقول ابن سعد أن أبا لهب سحب حمايته للنبي بعد أن سأله عن مصير عبد المطلب فأجابه: إنه في النار. وهنا يرفض جعيط ذلك لأن القرآن يقول إن التعذيب مقترن بتكذيب الرسل، وهذا صحيح لكنه ليس كافياً لأن الإنسان محاسب على أي حال عن مدى احترامه لقناعاته العقلية ومدى التزامه بالقيم الإنسانية التي يقرها العقل. والأجدر القول إن عبد المطلب كان موحداً، فقد كان من الحنفاء الذين رفضوا عبادة الأصنام وأصروا على التوحيد[26].

وبموت أبي طالب فقد النبي (ص) سنده القوي. وبحسب جعيط، حتى بني هاشم تركوه وحيداً يواجه قدره، فقد كان هناك قرار قرشي بنفي النبي وإخراجه من مكة، وهذا ما يفسر رحلته إلى الطائف[27]. لكن الحقيقة هي أن النبي اضطر للخروج، ولم يتم إخراجه بشكل مباشر. لقد تكالبت قريش على النبي كما لم تفعل من

---

(25) م.ن، ص 231.
(26) طالب السنجري، **حياة محمد..**، دار الطالب، بيروت، د.ت، ص 16.
(27) **تاريخية الدعوة المحمدية في مكة**، م.س، ص 235.

قبل... ولم يجد النبي من حل سوى الخروج والبحث عن ملجأ[28].

إنها لم تطرده من مكة، ولكنها بالغت في إيذائه، ولم يكن أمام النبي سوى الابتعاد والخروج لتجنب ذلك. وعلى هذا الأساس كان النبي مضطراً للخروج إلى الطائف ولم يكن مكرهاً عليه رغم أن ثقيفاً كانت معادية للإسلام، وكان النبي يعلم ذلك. كانت رحلة لجوء، ولم تكن عملية تسفير.

وعندما اضطر النبي للعودة إلى مكة بعد أن لقي صداً عنيفاً وأذى من سادة ثقيف، كان لا بد له من مجير. استجاب له المطعم بن عدي سيد نوفل، وهو من بني عبد مناف بعد أن رفض آخرون إجارته. ولا يوافق جعيط المصادر التي تقول أن الإجارة استمرت لشهرين فقط، ويرجح أن تكون استمرت لسنة أو سنتين أي حتى قرار الهجرة إلى يثرب[29].

كان موت أبي طالب مصيبة على النبي، وهو لذلك سمى العام الذي توفي فيه عمه عام الحزن، فقد كان يعرف أن قريشاً ستضاعف أذاها له. ولأجل ذلك كان لابد للنبي من البحث عن قاعدة جديدة بعد أن فشلت رحلة الطائف. وهنا يلاحظ جعيط أن القرآن بدأ يستخدم صيغة «أيها الناس». وهو يقول إن المقصود هنا هم العرب خارج مكة. ربما كان ذلك صحيحاً، لكن الذي لا أساس له هو الاستنتاج الذي توصل إليه جعيط وهو أن النبي بعث إلى العرب خاصة مثلما بعث سائر الأنبياء إلى أقوامهم، لأن القرآن يلح على

---

(28) ابن هشام، السيرة، تهذيب هارون عبد السلام، دار الفكر، بيروت، د.ت، ص 90.

(29) تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، م.س، ص 232.

اللسان العربي والقرآن العربي[30]. ورغم أن جعيط ينفي نبوة محمد (ص)، إلا أن ذلك لن يمنعه من القول إن النبي أرسل إلى «أم القرى ومن حولها» بشهادة القرآن نفسه. لكن القرآن يقول صراحة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[31]، وكذلك: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[32]، وهي آيات صريحة في النص على عالمية الرسالة الإسلامية.

كان النبي إذاً يبحث عن قاعدة جديدة، وكان موسم الحج والأسواق الموسمية فرصة لكسب أنصار جدد خارج مكة وبالنسبة إلى جعيط فإن موت أبي طالب وموت كبار السن من مشركي قريش وضعا النبي في موقف صعب، لأن قراراً بالنفي والإخراج اتخذ ضده مما جعله يبحث عن ملجأ له في الخارج وجوار في الداخل... فقد اشتدت عزلة النبي بعد إن هاجر المزيد من المسلمين، ولم تبق في مكة إلا قلة قليلة.

المسلمون الأوائل

يقر جعيط أن فراغاً روحياً كان موجوداً في مكة جاء النبي ليملأه، لكن أغلب الداخلين في الإسلام كانوا من الشباب والحلفاء، لأن الشباب يتوق دائماً إلى المثل العليا[33]. وربما التفوا حول شخص النبي بسبب ذلك، لا بسبب قناعة فكرية، كما يزعم، لأن القرآن كان

(30) م.ن، ص 287.
(31) سبأ: 28.
(32) الأنبياء: 107.
(33) **تاريخية الدعوة...**، م.س، ص 241.